

تأليف الكتب وتأسيس المكتبات في حاضرة تلمسان الزيبانية 1236-

1554 م.

محمد عطية

1- مخبر الدراسات التاريخية للوطن العربي عبر العصور- قسم التاريخ

كلية العلوم الإنسانية، جامعة عمار ثليجي بالاغواط

med.attia@lagh-univ.dz

تاريخ الإرسال: 2025/06/28؛ تاريخ القبول: 2025/09/05

The authorship of books and the establishment of libraries in
the Zayyanid capital of Tlemcen from 1236 to 1554 AD.A.

ATTIA MOHAMED □

Abstract: □

This research aims to highlight the scientific movement that the city of Tlemcen witnessed during the Zayyanid period. The city held a scientific position that qualified it to be a beacon of knowledge and a center of cultural radiance in the Islamic Maghreb. This was achieved through the rulers' concern to promote sciences by contributing to the support of authorship and copying and the establishment of libraries.

Scholars and students flocked to the city, each with a purpose, which energized the movement of authorship and spread scientific works and publications. These individuals were not only from the Zayani region but also from various parts of the Islamic Maghreb, Al-Andalus, and the Levant. Families became famous for their writings, such as the Al-Aqbani family and the Ibn Marzuq family, along with notable figures like the scholar Ahmed bin Yahya Al-Wansharisi and Abdul Rahman Ibn Khaldun.

Keywords: The Zayyanid state; Tlemcen; authorship; libraries; Ibn Khaldun.

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على الحركة العلمية التي شهدتها مدينة تلمسان في عهد الزيانيين، فقد تبوأَت المدينة مكانة علمية أهلها لأن تكون منارة علمية ومركزا للإشعاع الثقافي في المغرب الإسلامي. وذلك من خلال اعتناء الحكام بنشر العلوم من خلال المساهمة في تدعيم التأليف والنسخ وتأسيس المكتبات .

وقد توافد على المدينة العلماء والطلبة كل له غرض، وبذلك نشطت حركة التأليف، وانتشرت المؤلفات والمصنفات العلمية، ولم يكن هؤلاء من الزيانيين فحسب بل من أنحاء المغرب الإسلامي والأندلس والمشرق. واشتهرت أسر بالتأليف مثل بيت العقباني، وبيت ابن مرزوق، ومن الشخصيات العلامية أحمد بن يحيى الونشريسي وعبد الرحمن ابن خلدون.

الكلمات المفتاحية: الدولة الزيانية؛ تلمسان؛ التأليف؛ المكتبات؛ ابن خلدون.

مقدمة:

اشتهرت بلاد المغرب الإسلامي؛ كغيرها بالإنتاج الفكري في زمن مبكر من تاريخ الفتوحات الإسلامية، على الرغم من تلك الحروب المذهبية التي لم تدع للاستقرار السياسي سبيلا مقيما. ولم تكن الدولة الرستمية التي ظهرت في أواسط القرن الثاني الهجري بالمغرب الأوسط استثناءً من حيث تأليف الكتب والمصنفات، وإنشاء دواوين للشعر، فقد سار على دربهم وفي الرقعة الجغرافية

ذاتها، لكن بعد مرور قرابة خمسة قرون من الزمن ملوك بني عبد الواد، عندما أدركوا أنّ لامناص من ازدهار دولتهم واستمرارها؛ إلا بالنهوض بالعلم والعلماء. فقاموا باستقطاب العلماء الأجلاء وقربوهم إليهم، وجعلوا منهم حُجّابا لهم، ونصبوهم على دواوين دولتهم، وبعثوا في المدائن والأصقاع يجمعون الكتب والمصنفات وشتات الأوراق. وإغراء من كان من الفقهاء المغضوب عليهم بالقدوم إليهم. ومما ساعدهم يومئذ تلك النهضة العلمية التي تزامنت وقيام دولتهم، لاسيما في حواضر الأندلس المشرقة. وهكذا انبرى هؤلاء الأمراء على تشجيع نسخ المؤلفات وتأليف الكتب التي جعلوا لها مكتبات تلم شتاتها وتحفظها من التلف كما تسهل الاطلاع عليها والرجوع إليها في كل وقت وحين. ومن هذا المنطلق سنحاول إثارة الإشكالية التالية: كيف استطاع ملوك الدولة الزيرية إحداث نهضة علمية وفكرية في تلمسان والمغرب الأوسط؟ إلى أي مدى نجح هؤلاء في تشجيع حركة التأليف وتأسيس المكتبات على غرار حواضر المغرب الإسلامي في ذلك العصر؟

- حركة التأليف:

اعتنى الرستميون بالتدوين والتأليف وتأسيس المكتبات منذ قيام دولتهم بالمغرب الأوسط، منتصف القرن الثاني للهجري، وأواخر القرن الثامن للميلاد، كنتيجة لعوامل داخلية وخارجية تضافرت لتنتج لنا نهضة فكرية علمية يُحتذا بها. وكان ممن تأثر بهذه النهضة جل الملوك والأمراء الذين تعاقبوا على حكم المغرب الأوسط من شرقه إلى غربه. ومن بين هؤلاء حكام الدولة الموحدية؛ الذين أولوا مدينة تلمسان، مكانة خاصة، وغدت المدينة مركزا لتخريج العلماء والفقهاء، واتخذوا أي الموحدون منهم رجالا لهم؛ سواء في القضاء والفتوى والكتابة والمناصب السامية. كما اتسمت فترتهم بالتجديد وحرية التفكير منحت لأهل المدينة فسحة للرقى بالحياة العلمية من حيث التأليف. (حاجيات ع، 2011، صفحة 174).

سار الزيانيون على خطى الموحدين في حاضرة تلمسان خلال فترة حكمهم. من حيث الاعتناء بالعلم وطلابه؛ الأمر الذي لفت انتباه كل من كان متعطشا للكتابة والتدوين، ليس من مدن المغرب الأوسط فحسب بل حتى من الأندلس والمغربين الأقصى والأدنى وحتى المشاركة، وجعلوا من حاضرة تلمسان مقصدا لهم.

- مؤلفات أمراء الدولة الزيانية:

ألف الأمير أبو موسى حمو الثاني- الذي اشتهر بالأدب وسعة ثقافته، نظرا للبيئة التي عاش فيها زمن الإشعاع الثقافي في حواضر المغرب الإسلامي من فاس حتى تونس- كتابا بعنوان "واسطة السلوك في سياسة الملوك"، الذي عبر فيه عن آرائه السياسية، في الحكم من مظاهر الحياة السياسية أثناء فترة حكمه وحربه مع المرينيين. كما ضمنه قصائد شعرية. يرجح أنه ألف سنة 1363م. ولم يخلو الكتاب من نصائح تخص الحكام وغيرهم للتخلق بالأخلاق الرفيعة والمثل السامية التي من شأنها تهذيب الفرد والسمو به إلى المراتب العليا. (عيساوي، 2007، الصفحات 144-160).

حاول هذا الأمير لفت حكام المغرب الإسلامي لما كان يحاك ضدهم من مؤامرات، وهو الذي ولد بغرناطة في أزهى عصورها عندما كان والده منفيا بها، كما خاض حروبا مع جيرانه بفاس، لذا كان حريصا على إحداث نهضة علمية من شأنها النهوض بمملكته وبالبلاد الإسلامية على شاکلة بلاد الأندلس.

هذا وقد ألف الأمير أبو زيان محمد بن أبو حمو موسى الثاني؛ كتابا بعنوان: "الإشارة في حكم العقل بين النفس المطمئنة والنفس الأمارة" (بن رمضان، 2011، صفحة 41). ويذكر أن هذا الكتاب كان شبيها بكتب المتصوفة من حيث

المنهج، ولأهميته فقد أهدى لحاكم مصر يومئذ السلطان الظاهر برقوق (ضيف، 1995، صفحة 83).

- مؤلفات العلماء ممن عاصر الدولة الزيرية:

سطع نجم الكثير من علماء ومؤلفي ذلك العصر في سماء التأليف، وبقيت مؤلفاتهم شاهدة عليهم إلى اليوم سنقتصر على ذكر أبرزهم:

- مؤلف محمد بن أحمد المشهور بالشريف الإدريسي التلمساني: بلغت شهرته الأفاق في التأليف وذاع صيته مشارق الأرض ومغاربها، توفي 771هـ/1370م؛ اشتغل بالإمامة في جامع الخراطين بمدينة تلمسان، إذ أهله منصبه هذا لتدريس طلابه علوم النحو من خلال كتاب "التسهيل". وكتاب التسهيل هذا يخص اللغة العربية وقواعدها وهو مؤلف ضخيم، ويبدو أن أول من ألفه بهذا العنوان هو ابن مالك المتوفي 672هـ، وأضاف إليه ابن حيان الأندلسي المتوفي سنة 745هـ شروحا وتوضيحات، أما مترجمنا فقد وضع له مختصرا يغني عن دراسة المصدر الأصلي. ونسخة ابن حيان حققت مؤخرا ووضع لها عنوان "التذليل والتكميل في شرح التسهيل" من طرف حسين هنداوي، (أبو حيان، 2010، الصفحات 5-12). كما نُشرت في طبعة جديدة سنة 2024م؛ في 22 جزء، تقاسمت كل من دار القلم بدمشق ودار الكنوز بإشبيلية نشره. الأمر الذي يدل على القيمة العلمية الرفيعة لهذا الكتاب.

كما ألف كتاب مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول، والذي شرح فيه كيفية استنباط الأحكام الشرعية من القواعد الأصولية كالتأويل والاستثناء والتخصيص والمخالفة. (هادي، 2015، صفحة 164).

وإذا كان هذا الكتاب على المذهب المالكي فقد أُلّف في الفترة نفسها كتاب شبيه به، بيد أنه على المذهب الشافعي، وهو الموسوم بعنوان: "التمهيد في تخريج

الفروع على الأصول"، لصاحبه عبد الرحيم بن الحسن الإسنوي المتوفي سنة 772هـ.

يلاحظ حسب تاريخ الوفاة أنّ هذا الأخير عاش في زمن الشريف التلمساني، وما الاختلاف إلا في مكان العيش، فالإسنوي كان بمصر، ويظهر ذلك من خلال اسمه ومذهبه (متيلي، 2013، صفحة 61).

— مؤلفات يحي المازوني: ولد بمازونة، تولى منصب القضاء فيها، ويذكر أنّه توفي بتلمسان. ألف كتاب الدرر المكنونة في نوازل مازونة، الذي يؤرخ لفترة هامة من تاريخ المغرب الإسلامي زمن الحروب بين الحفصيين والزينيين والمرينيين. (هادي، 2015، صفحة 161). ويضم هذا الكتاب المخطوط فتاوى أهل المغرب الإسلامي من تونس والجزائر والمغرب الأقصى (نويهض، 1980، صفحة 281).

تعد هذه الفتاوى في قضايا مجتمع المغرب الأوسط خاصة والمغرب الإسلامي عامة، شاهدا على الأوضاع المختلفة التي كانت تمر بها البلاد في عصر المؤلف، الذي قيدها في هذه المخطوطة، وهي مختصر لما ورد إليه من نوازل عندما كان يشغل منصب القضاء بمازونة، توفي سنة 1479م (بلكيف، 2024، الصفحات 7-21).

- مؤلفات الشيخ أحمد بن يحي الونشريسي: ولد حوالي 1430م، استهل مشواره التعليمي في مدينة تلمسان، وكان من بين أساتذته أحد أفراد عائلة العقباني الذائعة الصيت، نبغ في مجال الفقه، وكان له فتوى مشهورة حول هجرة الأندلسيين من عدمها، إلى بلاد المغرب الإسلامي، عندما أجاز الهجرة وقال بأنّها فرض على كل مسلم مستطيع (تومي، 2018، الصفحات 245-263). ألف كتابا سماه "المعيار المغرب في علماء إفريقيا والأندلس والمغرب".

وكان قد ضمنه أحكام الفقه المالكي من خلال العديد من الفتاوى. كما ألف في ذات المجال كتاب مختصر أحكام البرزلي، لأن هذا الكتاب الأخير كتاب

ضخم وضع له مختصر يغني عن الرجوع لكتاب فتاوى البرزلي الموسوم بعنوان: "جامع مسائل الأحكام" (بوكرع، 2021، الصفحات 49-76).

وكتاب إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك. وهو مؤلف يحتوي على جملة من القواعد الفقهية التي تخص باب الفتوى والاجتهاد (الونشريسي، 1980، صفحة 4). وقد تمت دراسة هذا المؤلف في العديد من المناسبات، نظرا للأهمية التي ينطوي عليها، كيف لا ومذهب مالك هو مذهب المغرب الإسلامي. أما بالنسبة للونشريسي فإن معظم مؤلفاته كانت حول الفتوى، وهذا يدل على أهمية الفتوى والاجتهاد- عند تقلبات الأحوال ونوائب الدهر- في حياة المسلمين في ذلك العصر.

- مؤلفات الشيخ محمد بن مرزوق التلمساني المشهور بلقب الخطيب: وهو أبرز من ألف في مدينة تلمسان الزيرية (أنظر التعليق 1)، من حيث غزارة التأليف وقيمه العلمية ومن بين أشهر مؤلفاته نذكر:

أ- المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، وهو نقل تام لما كان يجري في البلاط المريني، من وصف لسيرة المولى أبي الحسن وحاشيته من المقربين إليه من الكتاب والوزراء، وكذا نظام دولته ومعيشة رعيته، وقد نقل إلينا تفاصيل دقيقة تدخل في مجال علم الأنثروبولوجيا بكل فروعها (بوعباد، 1981، صفحة 8).

ب- كتاب تيسير المرام في عمدة الأحكام، وهو شرح وافي لكتاب عمدة الأحكام عن سيد الأنام، للمؤلف تقي الدين الجمالي (المتوفي 600هـ/ 1203م)، وهو كذلك شرح لكتابين آخرين متشابهين في العنوان وهما: كتاب العمدة لمحمد ابن دقيق العيد (المتوفي 702هـ/ 1302م) والفكهاني عمر (المتوفي 734هـ/ 1333م) (ابن مرزوق، 1981، الصفحات 48-50).

ج- كتاب برج الخفاء في شرح الشفاء، ويذكر أنّ ابن مرزوق طالما اعتر بهذا المؤلف، وهو لم يكمله غير أنّه تتوفر معلومات عنه تفيد بأنّه يحتوي على خمس مجلدات كان حفيده قد اطلع عليها في مدينة القاهرة بعده.

وهناك مؤلفات أخرى لابن مرزوق التلمساني منها: "عجالة المستوفي المستجاز في ذكر من سمع دون من أجاز من أئمة المغرب والشام والحجاز". الذي بقي مخطوطا إلى اليوم في إحدى خزائن مدينة الرباط. وكتاب شرح الأحكام الصغرى للمؤلف عبد الحق العربي الاشبيلي. وكتاب جنى الجنتين في فضل الليلتين. كما هناك كتاب عنوانه إزالة الحاجب عن فروع ابن الحاجب. وهو شرح كتاب المختصر في الفروع لابن الحاجب أيضا (ابن مرزوق، 1981، الصفحات 50-51).

- المؤلفات العلمية لبنت العقباني:

اشتهر في هذا البيت العلمي الشيخ أبو عثمان سعيد بن محمد بن محمد العقباني، المولود بتاريخ 720هـ، في مدينة تلمسان، نهل علومها شتى من الفقه وأصوله والمنطق والهندسة والحساب وغيرها. كما اشتغل في القضاء في أماكن عدة منها مسقط رأسه ومدينة بجاية ووهران، وكان قد ألف كتابا سمي بشرح على الحوفي، في الفرائض وشرح البردة، وشرح على ابن الحاجب الأصلي. كما قام بشرح سورتي الأنعام والفتح، بالإضافة إلى تأليفه كتاب بعنوان "لباب اللباب في مناظرة القباب". هذا وقد اشتهر أحد أبنائه وواصل مسيرة والده في التأليف وهو ابنه قاسم العقباني (حاجيات، 1974، الصفحات 170-171).

- مؤلفات المغيلي:

لم تغب مؤلفات الشيخ الفقيه محمد بن عبد الكريم المغيلي (المتوفي 909هـ/1503م)، عن خزائن مدينة تلمسان العامرة، حيث رُصدت له عشرات المؤلفات. فالرجل قد اشتهر بغزارة إنتاجه الفكري، الذي كان متنوعا في

الوقت نفسه. ومن سمات هذا الإنتاج أنّه كان مختصرا مفيدا، وهو إذ ذاك منهجه في التأليف، فكان يقتضب كثيرا عند معالجته للقضايا المختلفة التي مرت عليه. ومن بين أهم ما ألف كتاب "مصباح الأرواح في أصول الفلاح". وكتاب "تنبيه الغافلين عن مكر الملبسين" ولم يتوقف الفقيه عند هذا الحد، فالشعر كان حاضرا في مخيلته، لهذا نجده قد نظم العديد من القصائد على وزن البردة في مدح خير البرية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم. وهنالك مؤلفات أخرى منها كتاب "مفتاح النظر في علم الحديث" و"شرح الجمل في المنطق" (هادي، 2015، الصفحات 162-163).

- المؤلفات الأندلسية في مدينة تلمسان الزيرية:

فضل الكثير من علماء الأندلس وممن بلغ لديهم التفكير مبلغا عظيما؛ في الهجرة إلى العدو الأخرى، من البر الإفريقي. فكانت العديد من المدن التي احتضنتهم ووارت مصابهم الجلل بعد هوان العيش في شبه الجزيرة الأيبيرية. ومن بين تلك المدن فاس، وهران، الجزائر، تونس وتلمسان. ولعل الأقرب لوجهتهم عبر بحر الزقاق هذه الأخيرة إذ شهدت حركية كبيرة عند قدومهم (القلصادي، 1978، صفحة 26). يقول عندها القلصادي في رحلته عندما وصف المدينة وأهلها وحركة العلوم فيها، في زمن متأخر من حكم الدولة الزيرية: "تلمسان يا لها من شأن، ذات المحاسن الفائقة، والأنهار الرائقة، والأشجار الباسقة، والأثمار المحدقة والناس الفضلاء الأكياس، المخصوصين بكرم الطبايع والأنفاس، ولا ينكر وجود الفاذا، من جميع الأجناس، وأدركت فيها كثيرا من العلماء والزهاد وسوق العلم يومئذ نافقة، وتجارة المتعلمين والمعلمين رابحة، والهمم إلى تحصيله مشرفة، وإلى الجد والاجتهاد فيه مرتقية، فأخذت فيها بالاشتغال بالعلم على أكثر الأعيان المشهود لهم بالفصاحة والبيان..." (القلصادي، 1978، صفحة 95).

على الرغم من المشاق، التي تعرض لها الأندلسيون في حلهم وترحالهم خلال الفترة التي أعلن فيها النصاري حروب الاسترداد (أنظر التعليق 2)، إلا أنهم لم يتخلوا عن طلب العلم والتأليف. وتعد هذه الحركة امتداد لما ألفه هؤلاء في بلاد الأندلس، لذا نجد العديد من الكتب قد ألف في تلمسان، نظرا لذلك الاستقرار الذي كانت تنعم به هذه الحاضرة، في ظل دولة بني زيان.

ولعل أهم ما كتبه هؤلاء أو ربما جلبوه معهم نذكر: أرجوزة أبو إسحاق إبراهيم بن أبي بكر التلمساني (المتوفي سنة 697هـ)، والتي وردت بعنوان "تبصرة البادي في الفرائض، وتذكرة الشادي المجيد الفارض"، وهي عبارة عن قصيدة طويلة تبلغ 834 بيت شعري، حول علم الفرائض والموارث (ابن الخطيب، 1973، الصفحات 326-329).

- كتاب الشيخ محمد بن أبي بكر بن عبد الله التلمساني الأندلسي المتوفي سنة 596هـ (أنظر التعليق 3)، الموسوم بـ الجوهرة في نسب النبي محمد صلى الله عليه وسلم "العمدة في ذكر النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء بعده". وهذا المؤلف بلغ من الشهرة مبلغا عظيما، وظل محل اهتمام العلماء والفقهاء بالأندلس وبلاد المغرب عموما، بما فيها حاضرة تلمسان. إذ يذكر أنه أخذ منه خلال القرن العاشر الهجري السادس عشر ميلادي (الأنصاري، 1984، الصفحات 80-81).

- مؤلفات المشاركة في مدينة تلمسان:

ساهم علماء بلاد المشرق الإسلامي البعيدة عن عاصمة ملك الزيانيين في النهضة العلمية بتلمسان، على الرغم من أن حركة الهجرة كانت تتجه من المغرب إلى المشرق - وليس العكس إلا نادرا- في إطار الرحلات الحجازية سواء لأداء فريضة الحج أو للعمرة أو لطب العلم والفتوى وغيرها من المآرب الأخرى. كانت تلمسان محج العلماء وقبلتهم التي شغلت بالهم، ومن بين من وفد إليها من المشاركة - موطنا لا أصلا- وهم قليلون جدا نذكر: عبد الله بن محمد بن عبد الله

بن محمد بن فرحون أبو محمد بن المحب أبي عبد الله اليعمري الأندلسي الأصل، المدني المولد والسكن (ولد 777هـ).

وكان له مؤلفات لاسيما في الفقه المالكي مثل كتاب مختصر الجلاب، ويشتهر هذا الكتاب باسم كتاب "التفريع". وهناك مؤلف آخر وهو كتاب "التبصرة"، تخصص صاحبه في الفقه إذ حاول شرح كتاب ابن الحاجب في الفقه المالكي (يماني، 2018، الصفحات 97-117).

يتضح من المؤلفات التي تم الإشارة إليها أنّ أكثرها يخص الجانب الديني، كما أنّ الفقه المالكي استحوذ على اهتمام أكثر المؤلفين. وبما أنّ المؤلفات كانت ضخمة فقد تفتن علماء تلمسان إلى ذلك ونبغوا في وضع مختصرات لها. الأمر الذي يسر للذين جاؤوا من بعدهم للإطلاع عليها دون عناء. خاصة وأنّها مخطوطات.

- المكتبات العلمية في حاضرة تلمسان الزبانية:

كان للرحلات العلمية والاحتكاك الدائم للزبانيين حكاما ورعية بالبلاد المجاورة، أثر طيب على مناحي الحياة الفكرية والثقافية، خاصة لما علم الملوك أنّ هذا الاهتمام هو السبيل الوحيد للمضي قدما نحو التقدم والرفق على سبيل بلاد الأندلس، مستلهمين من تجاربهم المبهرة، لذا نجدهم قد اخذوا بأسباب ذلك كله من خلال تأسيس المكتبات والأخذ بيد كل من يهتم بنسخ وتأليف الكتب وجمعها (هادي، 2015، صفحة 166).

فقد شهدت تلمسان حركة نسخ كبيرة للكتب وكانت البداية بنسخ المصحف الشريف، إذ غدت هذه حرفة الكثيرين، باعتبار أنّ نسخها ووقفها في سبيل الله تجزل الحسنات والقربات إلى الله عز وجل، فتعدى الأمر إلى نسخ الكتب الأخرى، بغية نشرها على نطاق واسع لتكون بيد المتعطشين للعلم والمعرفة، ولاشك أنّ منها ما تم تضمينه رفوف المكتبات التي أسست في هذه الحاضرة.

كانت رفوف المكتبات موزعة على المساجد والمدارس كما كانت أيضا بالزوايا والرباطات على التخوم، ولم تكن هناك مكتبات بالمفهوم الحالي. فتوفر هذا الزخم من الإنتاج الفكري والعلمي نظير المجهودات الجبارة التي بُذلت في مجال النسخ والتأليف والجمع كذلك. سواء من قبل العلماء أو حتى الأمراء أنفسهم فقد اعتنى هؤلاء بحفظ هذه المؤلفات، فوفروا لها حيزا مكانيا، لترتيبها وتصنيفها، من أجل تسهيل الرجوع إليها أو استعمالها من طرف من يحتاجونها. ومن هنا كانت فكرة إنشاء المكتبات حاضرة في أذهان ملوك دولة بني عبد الواد. (هادي، 2015، صفحة 161).

وهناك من يذهب إلى أنّ أبو عنان المريني كان أول من أسس المكتبات لحفظ الكتب، على الأقل في هذه الفترة، والأمر لا يعمم، إذ فقط في المغرب الأوسط وقبل ما يقارب الخمسة قرون أسس الرستميون مكتبة قيمة، وهي مكتبة "المعصومة"، بتهرت عاصمة دولتهم (دريخ، 2023، الصفحات 547-564). ولما كان التأليف غزيرا من طرف من سكن المدينة وباتت عندئذ تلمسان مقصد العلماء والمفكرين الذين جلبوا معهم نفائس الكتب والمخطوطات، والتي تم نسخها نظرا لشيوع هذه المهنة؛ كان لابد من تنظيم هذا الزخم من الكتب في مكتبات عليمة منظمة ومعلومة التواجد، وكان لابد ممن يضطلع بهذه العملية رجال الدولة من الأمراء على الخصوص، عندما تيقنوا من أنّ أساس أي نهضة علمية وفكرية تكون بحفظ الكتب وصيانتها (هادي، 2015، صفحة 164).

فقد اعتنى أبو موسى حمو الثاني (1359-1389 م)، أيما اعتناء بالكتب، فأضاف لها بذلك حركية محموددة العواقب بعد تلك التي بدأت منذ تأسيس الدولة، واستيلاء المرينيين عليها، وكان من بين أسباب هذه النهضة وجود خمس مدارس وجامع كبير (حاجيات، 1974، صفحة 160)، هذا الصرح الأخير وُضعت به خزانة كتب إلى اليمين من محرابه تضم نفائس المخطوطات وأمهات الكتب.

كما أمر بضرورة تزويدها بما وقعت عليه يد رعيته، من الكتب المهمة التي من شأنها أن تضيف لها قيمة عظيمة (بن رمضان، 2011، صفحة 89).

هذا وقد أسس ابنه أبو زيان محمد؛ مكتبة لا تقل أهمية عن مكتبة والده في بدايات حكمه، ويرجح ذلك في غضون سنة 1394م، في المكان نفسه بالجامع الكبير- نظرا للمكانة التي كان يمثلها هذه المعلم الديني لدى أمراء بني عبد الواد- ويعود سبب إنشاء هذه المكتبة إلى ولع هذا الأمير بنسخ الكتب وجلبها من المناطق المجاورة. ولعل أبرز هذه الكتب كتاب " الدر والعيقان في بيان شرف بني زيان" (هادي، 2015، الصفحات 158-174).

كما كانت هناك مكتبات خاصة بأبرز المؤلفين والنساخ، نتيجة اجتهادهم في طلب العلم والتأليف عندما خصصوا لأنفسهم مكتبات في زوايا بيوتهم وأدعوها كتبهم وما وقعت عليها أيديهم. بالإضافة لاجتهاد الوراقين في جمع الكتب، وإعادة نسخها، فهذا ابن مرزوق الخطيب سابق الذكر كان ينسخ المصاحف والكتب، وكان قد اتخذ من متجره بالمدينة مكتبة لتنظيم وتصنيف كتبه. ومن هنا يتبين أنه كان لإنشاء المكتبات الخاصة أسباب تعود بالدرجة الأولى إلى كثرة الكتب التي يحوزها كل متعطش للعلم أو متلهف للمعرفة، فكانت بذلك القصور الأميرية الزيرية لا تخلو من المكتبات لحفظ المؤلفات المختلفة، من شروح ومصنفات وأشعار، وكتب حملت في طياتها شتى العلوم العقلية والعقلية.

ومن خزائن الكتب المشهورة زمنئذ خزانة كتب مدرسة أولاد الإمام بمدينة تلمسان، على غرار مدرسة أبي مدين شعيب والمدرسة التاشفينية واليعقوبية (بوشقيف، 2008، الصفحات 105-115). إذ يذكر المقري صاحب نفح الطيب أنه عند زيارته لتلمسان في غضون سنة 1010هـ، الموافق لـ 1601-1602م، في إطار رحلته إلى المغرب والمشرق وقف على مدرسة أولاد الإمام، وهو

بصحبة الفقيه علي بن محمد بن علي أهلول، وأثناء الطواف على أركانها كان قد عرج على صرح المكتبة التي كانت موجودة بالمدرسة، ووجدها يومئذ فارغة من أي كتاب، نظرا لحالة الفوضى السائدة آنذاك (المقري، 2004، صفحة 140). بعد مضي قرابة نصف قرن على زوال دولة بني عبد الواد.

الخاتمة:

نالت مدينة تلمسان مكانة تليق بها كحاضرة لدولة بني عبد الواد، فالازدهار الاقتصادي والحياة الاجتماعية الراقية؛ أنتجت ثقافة مميزة، من خلال تلك الحركة العلمية التي كانت بلا شك استثناءً من حيث عدد العلماء والفقهاء والإنتاج الفكري لشتى العلوم، بين الحواضر العلمية يومئذ. ومن النتائج التي توصلنا إليها نذكر:

- مثلت تلمسان مركز إشعاع ثقافي ومنارة علم اهتدى إليها العديد من العلماء الذين أضافوا لها حركية أكثر من خلال نشاطاتهم العلمية، أمثال عبد الواحد الونشريسي وأبو مرزوق الخطيب والأخوين ابن خلدون؛ يحي وعبد الرحمن.
- انتشار حرفة النسخ إذ كانت المدينة قبلة لهؤلاء النساخ، الذين جعلوا من نسخ المصحف الشريف والمؤلفات المختلفة مجالا للتنافس.
- شملت هذه النهضة العلمية علوما شتى من العلوم النقلية إلى العلوم العقلية، كالفقه وأصوله والحديث وعلومه، والتاريخ وفنونه والمنطق وغيره.
- لم يكن التأليف من اختصاص العلماء والفقهاء فحسب، بل نال اهتمام ملوك الدولة وحجابه أمثال أبو حمو موسى الثاني، وعبد الرحمن بن خلدون.
- مثلت تلمسان مناخا ملائما لبروز علماء أجلاء، نتيجة ما كان يسود المدينة والبلاد ككل في تلك الفترة من رخاء. في مناحي مختلفة من الحياة كالأئمة، والمفتين والقضاة وغيرهم.

- اشتهرت بعض الأسر والعائلات؛ بالعلم وبتخصصات محددة بذاتها فاشتهرت بذلك البيوت العلمية مثل بيت العقباني الذي كان له باع في حركة التأليف.

- تأسست في حاضرة تلمسان العديد من المكتبات التي حوت في زواياها وحملت على رفوفها مئات المجلدات والمصنفات، التي نهل منها طلاب العلم وكان منها بقية إلى يوم الناس هذا.

إنّ المكانة التي بلغتها مدينة تلمسان - والتي مثلت حلقة الوصل بين المغربين الأدنى والأقصى والأندلس- كانت محل اهتمام العديد من الدول مثل المرينيين والحفصيين وحتى الإسبان المحتلين، يومئذ لمدينة وهران والمرسى الكبير، كما كانوا يحتلون سبتة ومليلية. لتبقى المدينة كذلك وتتوهج من جديد خلال العهد العثماني خاصة عندما شهدت توافد أعداد كبيرة من المهاجرين الأندلسيين.

1- ولد ابن مرزوق بمدينة تلمسان أوائل القرن الثامن هجري الرابع عشر ميلادي، في أسرة اشتهرت بالعلم والدين ، صال وجال في أقطار العالم الإسلامي ولاسيما حواضر المغرب الإسلامي. بقي ردحا من الزمن في قصور الملوك و الأمراء يطلب العلم والجاه، اشتغل بالسفارة لكم من حاكم. له مؤلفات كثيرة ذكرنا أهمها في متن هذا البحث (ابن مريم، 1908، الصفحات 184-190).

2- ألفونسو السادس من أشد ملوك النصارى الذين تمسوا لاحتلال شبه جزيرة أيبيريا، شن حملات متعددة على مدن وثغور الأندلس، بتعاون مع بعض من ملوك الطوائف، الذين ظنوا أنّ التحالف مع هذا الملك سيضمن لهم البقاء في حكمهم، وهناك من بينهم من استصرخ المرابطين الذين عبروا بحر الزقاق وألحقوا هزيمة كبيرة بالنصارى، حفظ هذا الانتصار لأندلس مكانتها الإسلامية وأجل سقوطها لمدة أربعة قرون. للمزيد ينظر: (السلوي، 1984، الصفحات 30-43).

3- اعتني الشيخ بالأنساب العربية، واشتهر بحفظ الحديث والتراجم، ولا زالت بعض من مصنفاته بمكتبة الأوسكريال بمديرية باسبانيا اليوم. عاش في منورقة بالأندلس زمنئذ، ونظرا لعدم استقرار الأوضاع هاجر إلى المغرب الأقصى واستقر بمراكش. ينظر: (الأنصاري، 1984، الصفحات 80-81)

المراجع:

- ابن الخطيب لسان الدين محمد. (1973). الإحاطة في أخبار غرناطة (المجلد 2). بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن مرزوق محمد التلمساني. (1981). المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن. (ماريا خيسوس بيغيرا، المترجمون) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- ابن مريم أبو عبد الله محمد. (1908). البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان. الجزائر: المطبعة الثعالبية.
- أبو حيان الأندلسي. (2010م). التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، تحقيق حسن هنداي. سوريا (دمشق): دار القلم.
- الأنصاري ابن عبد المالك المراكشي. (1984). الذيل والتكملة لكتابي الموصل والصلة. (عباس احسان، المترجمون) الرباط: أكاديمية المملكة المغربية.
- بلكيف عبد المنعم (2024م). القضايا النوازلية في كتاب الدرر المكنونة في نوازل مازونة للإمام المغيلي التلمساني. الحكمة للدراسات التاريخية، 11(4)، الصفحات 21-7
- بن رمضان محمد. (2011). باقة السوسان، في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان (الإصدار 1). الجزائر، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

- بوشقيف محمد. (2008). المؤسسات التعليمية في تلمسان خلال العهد الزباني. القرطاس للدراسات الحضارية والفكرية ، 1 (1)، الصفحات 105-115.
- بوعيداد محمود. (1981). مقدمة كتاب "المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن ابن مرزوق محمد التلمساني. (ماريا خيسوس بيغيرا، المترجمون) الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- بوكرع محمد (2021م). نوازل الفتوى والاجتهاد عند البرزلي- دراسة تعقيدية مقاصدية. الدراسات الفقهية والقضائية، 7 (2)، الصفحات 49-76.
- تومي طاهر. (2018). موقف العلماء المغاربة من المحنة الأندلسية- مقارنة بين فتوتي الونشريسي وأبو جمعة المغراوي. الدراسات الإسلامية ، الصفحات 245-263.
- حاجيات عبد الحميد. (1974). أبو حمو موسى الزباني،؛ حياته وآثاره. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- حاجيات عبد الحميد، دراسات حول التاريخ السياسي والحضاري لتلمسان والمغرب الإسلامي، ج 1، دار عالم المعرفة، الجزائر 2011م.
- دربيخ نبيل. (2023). احراق المكتبات وخزائن المعرفة. العبر للدراسات التاريخية والأثرية، (2/6). الجزائر: جامعة ابن خلدون بتيارت. الصفحات 547-564.
- السلاوي أحمد الناصري. (1984). الاستقصا لدول المغرب الأقصى الدولتان المرابطية والموحدية. (جعفر الناصري، المترجمون) الدار البيضاء: دار الكتاب.
- ضيف شوقي. (1995م) تاريخ الأدب العربي، القاهرة، دار المعارف المصرية.
- عيساوي مها. (2007). ابو حمو موسى الزباني(السلطان الأديب). العلوم الاجتماعية والعلوم الانسانية ، 1، الصفحات 144-160.
- القلصادي ابوالحسن الأندلسي. (1978). رحلة القلصادي. تونس: الشركة التونسية للتوزيع.

- متليلي منير(2013م). تخريج الفروع على الأصول في المذهب المالكي.الثقافة الإسلامية(1/9)، الجزائر: وزارة الشؤون الدينية، الصفحات 59-76.
- المقري أحمد أبو العباس. (2004). رحلته إلى المغرب والمشرق. (محمد بن معمر، المحرر) الجزائر: المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع.
- هادي جلول. (2015). دور المكتبات في نشر العلوم في تلمسان في العهد الزياني. المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية والمتوسطة (2).
- نويهض عادل. (1980م). معجم أعلام الجزائر، لبنان: مؤسسة نويهض الثقافية.
- يماني رشيد. (2018). المؤلفات الأندلسية المتداولة في تلمسان الزيانية، انترولوجيا الأديان (21)، الصفحات 97-117.